

الوجدان الجماعي في الشعر الجاهلي

للدكتور عبدالغني زيتوني

مدرس الأدب القديم بجامعة حلب

إنّ مجتمع القبيلة في العصر الجاهلي، بعلاقاته ونظمه وعاداته وأعرافه، هو المجتمع الذي يولد فيه العربي، ثم ينشأ متشرباً بنظمه وعاداته وأعرافه التي تبنى على دعامة أساسية هي النسب، وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أنّ كل امرئ في قبيلته يتغنّى بانتمائه، ويعتدّ بأرومته، بدءاً من والده وإخوته، وانتهاءً إلى رهطه وعشيرته، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، و"هويته" التي يحملها دائماً، في حله وترحاله، اسم قبيلته، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم.

فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الشعر الجاهلي يبرز الإنسان العربي متعصباً لقبيلته أشد التعصب، ملتحمًا بها ألصق الالتحام، لأنه يعي ويدرك أن وجوده، مرتبط بوجودها، وفناءه مقرون بفنائها. ولا أدعى لهذه العصبية، وهذا الالتحام من شعوره بوحدة النسب، أي وحدة الدم التي تربطه بأفراد القبيلة جميعاً، والتي تجعله يحس أنه عضو في جسم القبيلة، يصيبه ما يصيب القبيلة، فيفرح لفرحها، وبحزن لحزنها، وبظعن لظعنها، وينزل لنزولها، وإذا أُغبر عليها هبّ لنجدتها، ذائداً عن حياضها، وشعاره صيحات قوية تعلن انتسابه إليها، وإذا اعتدى على فرد منها

انطلق إلى الثأر من القبيلة المعتدية. وفضلاً عن ذلك كله فإنه ينقاد لسيدها، ويخضع لما تمليه عليه نظمها وأعرافها.

فالنزعة العصبية تعني تمسك العربي بنسب قبيلته تمسكاً شديداً، وخضوعه التام لشريعة القبيلة. وهذه العصبية هي التي تهب الأفراد والقوة والتأزر في مواجهة الأعداء. وقد ألمح ابن خلدون إلى هذا الأمر في قوله: "ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبيةً وأهل نسبٍ واحدٍ، لأنهم بذلك تشتت شوكتهم، ويخشى جانبهم، إذ نُعرة كلُّ أحد على نسبه وعصبيته أهمّ، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنُعة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم"^(١).

١ - الالتزام القبلي:

لا غرو، بعد أن عرفنا مدى عصبية الفرد، أن يقف الإنسان العربي موقف الملتزم بقضايا القبيلة وحقوقها وواجباتها، لا يكاد يخرج عن هذا الالتزام. ولما كان الشاعر فرداً من أفراد القبيلة فقد اتخذ الموقف نفسه، بل إنه تحمل أعباء أكثر، لما له من أهمية في الحياة الجاهلية، لذلك حمل لواء الشعر مدافعاً عن قبيلته أشد الدفاع، ومفتخراً بمآثرها وأمجادها أعظم الافتخار. وإذا كانت المهمة التي يقوم بها الشاعر، في أي مجتمع كان، هي الكشف عن العقلية المنتشرة في ذلك المجتمع، إذ يشعر بها ويعبر عنها^(٢)، فإن هذه المهمة تنطبق تماماً على ما قام به الشاعر الجاهلي، فقد جعل من شعره مرآة صادقة تعكس قضايا القبيلة في حالتها الحربية والسلم، فضلاً عن وقوفه مع قبيلته، مدفوعاً بنزعة العصبية تجاهها، فإذا هو يرى أنّ نسبها أشرف الأنساب، وأنّ شجاعتها ما بعدها شجاعة، وأنّ فضائلها وخلالها الحميدة تربو على ما عداها من فضائل القبائل الأخرى وخلالها.

وتلك الرؤية ليست قصراً على الشاعر وإنما يشترك فيها معظم أفراد القبيلة، وما الشاعر إلا لسان حال القبيلة، يعبر في شعره عن انفعالات أفرادها وأحاسيسهم وطموحاتهم، فينقلها إلى الآخرين، فشعره لا يعكس شعوراً ذاتياً فقط، وإنما يعكس شعور جماعته أيضاً.

وهكذا نجد في كثير من الشعر الجاهلي ذلك التعبير عن طغيان الروح الجماعية على الإنسان العربي، وقد جُلِّيت هذه الروح في نزعتها العصبية التي جعلته لا يكاد يخرج عن مجتمع القبيلة والالتزام به؛ ذلك أن الفرد في القبيلة عليه أن يتبعها في أمورها كلها سواء أكانت مصيبة أم مخطئة، فما تقرر هو القرار النافذ الذي لا ينبغي لأحد أن يخرج عليه، على الرغم من ظهور فساده أحياناً، وقد عبّر عن مثل ذلك الموقف دُرَيْدُ بن الصَّمَّة حين قال⁽³⁾:

أمرئُهُمُ أمري بِمُنْعَرَجِ اللَّوى فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضحى الغدِ
فلما عَصَوْنِي كنتُ منهمُ، وقد أرى غَوَايَتَهُمْ وَأَنَّنِي غيرُ مُهْتَدِي
وما أنا إلا من غَزِيَّةٍ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةُ أرشُدِ

إذن فثمة مصير واحد لجميع أفراد القبيلة، والالتزام بها يحتم على الفرد العربي أن يكون مع قومه في السراء والضراء، وقد تحول تمسك الفرد بمصير القبيلة إلى أسطورة يتناقلها العرب جيلاً بعد جيل عن وفد عاد، حين خُيروا من السماء، وكانوا ثلاثة، فاختار اثنان منهم ما يحقق آمالهما، أما الثالث، وهو قَيْل بن عَثْر، فقال: "أختار أن يُصيّبني ما أصاب قومي، فقيل: إنه الهلاك. قال: لا أبالي؛ لا حاجة لي في البقاء بعدهم"، فأصابه ما أصاب عاداً من العذاب فهلك"⁽⁴⁾.

إنّ من أهم مظاهر نزوع الفرد نحو قبيلته، كما يبدو من الشعر، حرصه الشديد على النسب والاعتزاز به، ولم لا؟ وهو أقوى صلة تربطه بقومه، وتشد أواصر العصبية معهم. فلا غرابة بعد ذلك أن يطمح إلى أن يجعل نسبه في الذروة

من الشرف والرفعة، وأن يجعل الأجداد والآباء الذين ينتمون إليه في مقام السادة العظماء. ونجد صدى ذلك في قول معاوية بن مالك^(٥):

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ عُسْبَةِ مَشْهُورَةٍ حُسْدٍ لَهُمْ مَجْدٌ أَشَمُّ تَلِيدٌ
أَلْفُوا أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ كَرَمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجُدُودٌ
إِذْ كُلُّ حَيٍّ نَابِتٌ بِأَرْوَمَةٍ نَبَتَ الْعَضَاءِ فَمَا جِدُّ وَكَسِيدٌ
وَإِذَا نَوَافِقُ جُرْأَةٌ أَوْ نَجْدَةٌ كِنَاءٌ، سُمِّيَ، بِهَا الْعَدُوُّ نَكِيدٌ

فالشاعر يؤكد انتماءه إلى قومه الذين يشكلون عصبه قوية ملتحمة الأطراف، تشمخ متطاولة بأمجادها نحو السماء، قد رعاها الآباء والأعمام والأجداد حتى جعلوها كشجرة وارفة الظلال تنضح عبيراً فواحاً من المجد والسيادة، وتقف صامدة راسخة أمام زعزعة الرياح، لما لها من قوة الأغصان وصلابة الفروع. وعلى هذه الشاكلة ينزع سلامة بن جندل السعدي إلى الفخر بانتسابه إلى قومه الذين يجمعون إلى شرف المحتد شجاعة في القتال، ورأياً صائباً في حل قضايا القبيلة، وإحلال الوفاق والوئام بين أفرادها^(٦):

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ عُسْبَةِ سَعْدِيَّةٍ ذَرَبِي الْأَسَنَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تَلَاقِي
لَا يَنْظُرُونَ إِذَا الْكَتْبِيَّةُ أَجَحَمَتْ نَظَرَ الْجَمَالِ كُرِينَ بِالْأَوْسَاقِ
يَكْفُونَ غَائِبِهِمْ وَيُقْضَى أَمْرُهُمْ فِي غَيْرِ نَقْضٍ مِنْهُمْ وَشِقَاقِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ مَنْ يَيْلُ نَحْوَهَا بَدَمٍ كَمَاءِ الْعَنْدَمِ الْمُهْرَاقِ

وشبيه بذلك أيضاً فخر الأعشى بعصبيته القيسية، وبشبابها الذين يفوقون الآخرين شجاعة وجمالاً، فضلاً عن اتصافهم بالأنفة والعزة والكرم^(٧).

إن اعتزاز الإنسان العربي بنسبه جعله يغلو في بعض الأحيان، فلا يرى نسباً يضاهي نسب قبيلته نبلاً وشرفاً، ولا يرضى أن يتناول أحد من القبائل الأخرى،

فيظن نفسه أعلى نسباً وأشرف أرومة، وما الرواية الآتية إلا صورة واضحة لذلك الغلو.

فقد ورد أن بدر بن معشر من بني مُدْرِكَةَ وقف في الجاهلية، بسوق عُكاظ، يفخر بنسبه، ويقول:

نحن بنو مُدْرِكَةَ بنِ خَنْدِيفٍ من يَطْعُنُوا في عينيه لم يَطْرِفْ
ومن يكونوا قَوْمَهُ يُعْطَرِفْ كأنه لَجَّةُ بَحْرِ مُسْدِفِ

ثم مدَّ رجله، وقال: "أنا أعزُّ العرب، فمن زعم أنه أعزُّ مني فليضربها". فلم يطق الأحمر بن مازن الهوازني عنجهيته ورفع نسب قبيلته فوق أنساب القبائل الأخرى، فاستل سيف، وضرب رجله، فأندرها من الركبة، غير مبال بحرمة الشهر الحرام وقد كاد الشر يستفحل بين قبيلتي الرجلين، لولا أنهم جنحوا إلى الصلح فيما بينهم.

وقد سجل الأحمر تلك الحادثة في شعره، فقال^(٨):

إني وسيفي حليفا كل داهية من الدواهي التي بالعمد أجنيها
إني نقيت عليه الفخر حين دعا جهراً وأبرز عن رجل يعريها
ضربتها أنفا إذ مدّها بطراً وقلت دوتكما، خذها بما فيها
لما رأى رجله بانّت بركبتها أومى إلى رجله الأخرى يفديها

وتلك، لا شك، صورة للغلو الشديد في التعصب القبلي، ولم تكن هي الصورة السائدة في العصر الجاهلي؛ إذ لكل قبيلة مكانتها في مدارج النسب والشرف، تعرفها لها القبائل الأخرى وتضعها موضعها فيها. أما إذا حدث، أحياناً، إفراط من فرد ينتمي إلى قبيلة ما، فإن إفراطاً آخر يقابله من الطرف الآخر على الأغلب، وتكون عاقبته شبيهة بماحدث لساق بدر بن معشر بسوق عُكاظ.

لقد نهل الإنسان العربي من حب قبيلته حتى غدا لا يلهج إلا بذكرها، وفي كثير من الأحيان لم يكن يرى في قبيلته إلا نموذجاً مثالياً للكمال والرفعة والسؤدد؛ فإن هو ينحت لها تمثالاً بديعاً يجمع فيه أفضل الصفات الخلقية والخلقية. وليس أدل على ذلك الحب من معلقة عمرو بن كلثوم التي لم يدع فيها فضيلة من الفضائل إلا جعلها لصيقة بقومه بني تغلب، ولا صفة من صفات البطولة إلا أسبغها عليهم. ولم يكتف بذلك فقد تضخمت في نفسه تلك الفضائل والصفات حتى فاضت في قوله^(٩):

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

إن نفس الشاعر قد امتلأت بعظمة القبيلة حتى ذابت فيها ذوباناً تاماً، فلم تعد تعبر إلا بلسانها، وغابت "أنا" الشاعر لتحل محلها "نحن" القبيلة، وظهر ذلك واضحاً في استخدام ضمائر الجمع في الأفعال والأسماء، ولم يقتصر استخدامها على الأبيات السابقة، وإنما شمل أكثر أبيات المعلقة. فلم يعد مستغرباً، بعد أن استحوزت القبيلة على كيان الشاعر، أن نراه يجعلها مالكة الدنيا، ومسيطرة على من فيها من القبائل.

وقد نهج الشاعر عامر المحاربي نهجاً ممثلاً تجاه قبيلته؛ إذ جعله التزامه نحوها ينطلق إلى رفعها إلى مكانة عالية من الشجاعة في القتال، وإلى الدروة الشامخة من السيادة والمهابة^(١٠):

أولئك قومي إن يلدُ ببيوتهم أخو حدت يوماً فلن يتَهَضَّما
وكم فيهم من سيد ذي مهابة يُهاب إذا ما رائدُ الحربِ أضرمًا
لنا العزة القعساء نخنطم العدى بها ثم نستعصي بها أن نخطمًا

هُمُ يَطِدُونَ الْأَرْضَ لَوْلَاهُمْ ارْتَمَتْ بِمَنْ فَوْقَهَا مِنْ ذِي بَيَانَ وَأَعْجَمَا

إن طغيان الروح الجماعية على الشاعر والتزامه القبلي جعلاه لا يرى في الوجود غير قبيلة، فهي المحور الذي تدور عليه حياة الآخرين، فإذا ما زالت انتهت الحياة بمن فيها، ومن هنا نجد أن حياة الشاعر قد اندمجت في حياة القبيلة وغدت حياة واحدة، لأنه ربط ربطاً سببياً بين وجوده ووجودها، فأَيُّ وجود ينتهي فإن الوجود الآخر ينتهي أيضاً، فهي علة الحياة وعلة الوجود ولولاها لما كانت حياة ولما كان وجود.

وهكذا أوضح لنا الشعر جلياً التزام الإنسان العربي بقبيلته؛ فقد ظهر ذلك الالتزام في خضوعه التام لها، وفي فخره بالانتماء إلى نسبها، وفي رؤيته المثالية لمآثرها وأمجادها. وسنجد أن نزعة العصبية جعلته أيضاً ينفاد لسيدها انقياداً تاماً، ويرفع من مكانته إلى أعلى المراتب.

٢- سيد القبيلة:

إن نزوع الفرد نحو قبيلته وميله المفرط تجاهها دفعاه إلى أن يرى في سيدها المثل الأعلى، وأن يرى في صفاته صفات فريدة تميّزه من سائر الأفراد الآخرين؛ إذ إن قضايا القبيلة وواجباتها نحو أفرادها، ونحو القبائل الأخرى كثيرة ومختلفة، فكان لا بد لرئيسها أن يتحمل عبء القيام بالتوجيه والإرشاد وحمل المسؤولية أمام مجتمع القبيلة، الذي يعيش، غالباً، حياة غير مستقرة في مواجهة طبيعة قاسية، تجبره على التنقل والارتحال، وفي مواجهة أعداء أولي بأس وقوة يجبرونه على التيقظ والحذر.

وذلك كله يجعل الإنسان العربي يطلب في سيده خلاصاً وشمائل كثيرة، تخوّله قيادة القبيلة في تلك الحياة الشاقة. وقد أمدتنا الروايات والنصوص الشعرية بمعظم صفات الرئاسة، مما يجعلنا نكوّن رؤية واضحة لسيد القبيلة. فقد ورد أن أهل

الجاهلية كانوا: "لا يُسودون إلا من تكاملت فيه ستُّ خصال، السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان"^(١١). كما ورد: "أنه قيل لقيس بن عاصم: بِمَ سُدَّتَ قَوْمَكَ؟ قال: ببذل الندي، وكف الأذى ونُصرة المولى، وتعجيل القرى"^(١٢).
 وفضلاً عن تلك الصفات لا بد لسيد القبيلة من أن يتحلَّى بالعقل والرأي الصائب، وأن يكون ذا حيلة وفطنة للتخلص من المعضلات في الحرب والسلم. كما لا بد له أن يكون شجاعاً مقداماً مُلمّاً بفنون القتال وقيادة المعارك، يمتلك جسماً قوياً قادراً على الصبر والتحمل في الشدائد، وهذا ما وُصِفَ به عامر بن الطفيل، سيد قبيلة جعفر بن كلاب، إذ قيل عنه: "كان لا يَضَلُّ حتى يَضِلَّ النَجْمُ، ولا يعطش حتى يعطش البعيرُ، ولا يهابُ حتى يهابَ السَّيْلُ، كان، والله خير ما يكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً"^(١٣).

وذهب قسم من الشعراء إلى أن الرأي الحكيم والشجاعة الفائقة هما أهم ما يتطلبه الفرد في قائد قبيلته ورئيسها، وآية ذلك أنه حينما علم لقيط بن يعمر الإيادي بحشد كسرى جيوشه للإغارة على قومه بعث إليهم شعراً يحذّرهم فيه، ويطلب منهم أن يتخيروا قائداً يتصف بصفات السيادة، وفي مقدمتها شجاعة القتال وحنكة التفكير^(١٤):

فَقَالُوا أَمْ رَكْمٌ، لِلَّهِ دَرْكُكُمْ	رَحَبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا
لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ	وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعًا
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَعْنِيهِ تُغْوِرُكُمْ	يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطَّلَعًا
مَا أَنْفَكَ يَحْلِبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ	يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا
وَلَيْسَ يَشْغُلُهُ مَالٌ يُنَمَّرُهُ	عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْغِي لَهُ الرَّفْعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزِ مَرِيرَتِهِ	مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا

فالقائد الذي يطلبه لقيط يتصف بالشجاعة ومعرفة فنون الحرب، والرأي الحكيم، والخبرة التامة بخلو الحياة ومرها، همه أمن القبيلة والمحافظة عليها، كما يفضل أن يكون قوي الجسد متين البنية، تام الرجولة، فلا هو شيخ كبير ولا هو حدث صغير.

وبيِّن لنا الشعر أن مهام سيد القبيلة تتعدى القيادة والتوجيه إلى تكفله، في أكثر الأحيان، بسد عوز الفقراء من أفراد قومه، وغالباً ما يكون له بيت خاص يأتون إليه فيجدون فيه ما يقضي حوائجهم، ويشبع بطونهم كما يرتاده أيضاً الأضياف وعابرو السبيل، فيلقون فيه الطعام والمأوى، ذلك أن سجية الكرم والجود والعطاء من أبرز الصفات التي ينبغي أن تكون في سيد القبيلة، وقد رأينا أن قيس ابن عاصم افتخر بأنها هي التي جعلته سيد قومه. كما وجدها الأعشى أظهر خصال قيس بن يكرب سيد كندة حين مدحه، فقال^(١٥):

وسعى لِكِنْدَةَ، غيرَ سَعِي مَؤَاكِلِ، قَيْسٌ، فَضَرَ عَدُوَهَا وَبَنَى لَهَا
وأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا وَأَسَى، وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا، وَسَعَى لَهَا
وَتَرَى لَهُ ضُرّاً عَلَى أَعْدَائِهِ وَتَرَى لِنَعْمَتِهِ عَلَى مَنْ نَالَهَا
أَثِراً مِنَ الْخَيْرِ الْمُزَيَّنِ أَهْلَهُ كَالغَيْثِ صَابَ بِبِلَادِهِ فَأَسَالَهَا

وفضلاً عن ذلك فإن سيد القبيلة كان يقوم، غالباً، باحتمال الديات عن أفراد قومه، إذا لم يقدرُوا على دفعها، وقد ورد أن رئيس القبيلة إنما قيل له "السيد المُعَمَّم" لأن كل جنائية يرتكبها رجل من عشيرته تكون معصوبة برأسه، كما تعصب به العِمَامَة^(١٦). ومعروف أن هَرَمَ بن سنان والحارث بن عَوْفَ سَيِّدِي بني مُرَّةٍ قد حملا الديات بغية إنهاء الحرب بين عبس وذيبيان، مما جعل زهير بن أبي سلمى يمدح صنيعهما في معلقته، وذلك في قوله^(١٧):

يميناً لنعم السيدانِ وُجدتُما على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمٍ
تداركتما عسبا وذيبانَ بعدما تَقَانُوا ودَقُّوا بينهم عَطَرَ مَنَشِمٍ
وقد قلتما: إنْ نُدْرِكِ السَّلْمَ واسعا بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نِسْلَمِ
وأصبح يُحْدَى فيهمُ من تِلَادِكُمْ مغانِمُ شَتَى من إفالٍ مُزْتَمِ
تَعَفَّى الكَلُومُ بلمئِينِ فأصْبَحَتْ يُنَجِّمُهَا من ليس فيها بِمُجْرِمِ
يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غرامَةً ولم يُهْرِقُوا بينهم مِلءَ مِحْجَمِ

ويبدو أن كثرة تلك الأعباء المالية التي يتحملها سيد القوم كانت دافعا كبيرا
حدا بالعربي أن يخصصه بامتيازات وحقوق تفوق امتيازاته وحقوقه هو، ومن ذلك ما
يفرد له من الغنائم، كالمرباع والنشيطه والصفايا والفضول.

فأما المرباع فهو ربع الغنيمة، وأما النشيطه فإنه كان للرئيس أن ينشط، عند
قسمة المتاع، العلق النفيس فيأخذه، وأما الصفايا فهو ما يصطفيه لنفسه من
الغنيمة قبل القسمة، وأما الفضول فهو ما فضل عن القسمة بعد توزيع الغنائم. وقد
ذكر تلك الحقوق جميعها عبدالله بن عَمَّة في رثائه لبسطام بن قيس، سيد بني
شيبان^(١٨):

لَكَ المِربَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

هذا عدا عن التقدير والتجلة والاحترام التي يبديها الإنسان العربي لسيد
القبيلة، فضلا عن الطاعة والخضوع لتوجيهه وإرشاده، فقوله القول الفصل في حل
النزاعات والخلافات بين أفراد القبيلة وفروعها، لعل في قول ابن خلدون الآتي في
مشايخ البدو ما يصدق كثيرا على سادة القبائل في العصر الجاهلي: "وأما أحياء
البدو فيزغ بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من
الوقار والتجلة"^(١٩):

ويبدو من الشعر أن سعي سيد القوم في حلّ الخلافات لا يقتصر على قبيلته نفسها، وإنما قد تأتي إليه قبائل أخرى تحكّمه في خصوماتها، كما جرى لقبيلتي عبس وذبيان، حين وقع الشر بينهما وأرادتا الصلح، فطلبنا من سُبَيْع التغلبيّ، وهو سيد تغلب، أن يحكم بينهما، وقد أرسل إليه سَلَمَة بن الخُرْشُب الأثماريّ شعراً، يسأله فيه أن يعدل في الحكم، فلا ينحاز إلى أحد الطرفين، شأن سيد القبيلة المنصف^(٢٠):

أَبْلَغُ سُبَيْعًا، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا	قَدَمًا، وَأَوْفَى رِجَالِنَا نِمَمًا
أَنْ بَغِيضًا وَأَنَّ إِخْوَتَهَا	ذُبْيَانَ قَدْ ضَرَمُوا الَّذِي اضْطَرَمَّا
نُبُّوتٌ أَنْ حَكْمُوكَ بَيْنَهُمْ	فَلَا يَقُولَنَّ بئْسَ مَا حَكَمَا
أَنْ كُنْتَ ذَا خِبْرَةٍ بِشَأْنَهُمْ	تَعْرِفُ ذَا حَقِّهِمْ وَمَنْ ظَلَمَا
وَتُنْزَلُ الْأَمْرَ فِي مَنَازِلِهِ	حُكْمًا وَعِلْمًا وَتُخْضِرُ الْفَهَمَا
فَاحْكُمْ، وَأَنْتَ الْحَكِيمُ، بَيْنَهُمْ	لَنْ يَعْدَمُوا الْحُكْمَ ثَابِتًا صَتَمًا
حَتَّى تُرَى ظَاهِرَ الْحُكْمَةِ مِثْلَ	لِ الصُّبْحِ جَلَّى نَهَاةِ الظُّلَمَا
هَذَا وَإِنْ تُطِيقَ حُكْمَتَهُمْ	فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ سَلَمًا

ولكن لا ينبغي أن يذهب بنا الظن إلى أن الإنسان العربي كان يسلم أموره كلها لسيد القبيلة، من دون قناعة أو فهم أو محاسبة له، وإنما كان، في بعض الحالات كما يبين لنا الشعر، إذا شعر بأنه لا يحقق مصالح القبيلة تمامًا، أو أنه غير كفاء لقيادتها وتوجيهها، خلع عنه السيادة وجردّه من حقوقها. وهذا ما جرى لسيد بني سليم بن قيس، فإنهم كانوا قد نَصَبُوا عليهم سيّدًا، فلما خالفهم في بعض الأمور وثبوا عليه، وأخرجوه من ديارهم، فقال يزيد بن الصّعق يهجوهم بفعلتهم^(٢١):

وَإِنَّ اللَّهَ ذَاقَ حُلُومِ قَيْسٍ	فَلَمَّا ذَاقَ خِفَّتْهَا قَلَاهَا
رَأَاهَا لَا تَطِيعُ لَهَا أَمِيرًا	فَخَلَاهَا تَرَدَّدُ فِي خَلَاهَا

ولهذا كان حرص سادة القبائل ورؤسائها على مشورة ذوي الرأي في معظم الأمور، ولا يكاد ينفرد سيد القبيلة بأرائه، وإنما كان يشاور مجلساً يضم أشراف قبيلته، وقد يُعَبَّر عنه أحياناً بالملاء^(٢٢). وهذا المجلس شهد لدى قريش تطوراً بارزاً حين أضحى له دار خاصة بمكة تعرف بدار الندوة، حيث كان يجتمع فيها ساداتهم وكبرؤهم للتشاور في أمور السلم والحرب^(٢٣).

وبشير الشعر في بعض المواضع إلى أن عدم التشبث بالرأي، وجعل الأمر شورى في القبيلة، صفتان هامتان في سيد القبيلة، لأن أي خطأ يرتكبه قد يعرض القبيلة كلها للخطر أو الهلاك. وهذا ما جعل لقيط بن يعمُر، في وصيته لقومه، ينبههم على اختيار رئيس يتصف بها الصفتين^(٢٤):

ما انفكَّ يَحلب دَرَّ الدهرِ أشطرُهُ يكون مُتَّبِعاً طَوَراً ومُتَّبِعَا

كما وجد الأعرابي أن من كمال سيادة قيس بن معد يكرب الكندي أنه لا يعتدُّ برأيه، وإنما يشاور أفراد قبيلته، ويجعلهم، دائماً، قريبين منه لهذا الأمر^(٢٥):

فإنَّ الإلهَ حباكُم به إذا اقتسمَ القومُ أمراً كُبارا
فإنَّ لكم قريهً عِزَّةً ووسَّطَكم ملكه واستشارا

لقد حرص الجاهليون على السيد حرصاً جعلهم يهتمون بتتصيب أبنائه سادة بعده؛ فكان إذا نَبه ابن سيد القبيلة وعلا شأنه ورث رئاسة القبيلة بعد أبيه، وكانت هذه الوراثة شائعة في العصر الجاهلي، فمن ذلك أن حصن بن حذيفة أوصى ابنه كي يكون رئيساً لقومه بني فزارة، من بعده^(٢٦).

وقد سجل لنا ذلك الشعر، فحينما ورث بشامة بن الغدير السيادة عن أبيه افتخر بتقلده إياها وراثته، فقال^(٢٧):

وجدتُ أبي فيهم وجدِّي كليهما يُطاع ويؤتى أمرُهُ وهو مُحْتَبِي
فلم أتعَمَل للسيادة فيهم ولكن أتنتي طائعا غير مُتَعَبِ

ويبدو أن سيد القبيلة كان إذا حضر الموت، ورأى ابنه جديراً بالسيادة، أوصاه
بوصايا ترشده في رئاسته القادمة، وقد زُعم أن الحارث بن كعب، سيد القبيلة التي
تُسَمَّى باسمه، أوصى ابنه، فقال^(٢٨):

أَبْنَيَّ إِنَّ أَبَاكَ يَوْمًا هَالِكٌ فاحفظُ أباك رئاسةً وتَقَابُا
وإذا لقيت كتيبةً فنَقِّدْ مَنْ إن المقدم لا يكون الأخبيا
تلقى الرئاسة أو تموتُ بطعنةٍ والموتُ يأتي من نأى وتجنُّبا

لكن لا يعني ما تقدم أن سيد القبيلة كان يتلقى الرئاسة وراثته دائماً، وإنما كان
يُنصَّب فيها من هو كُفُوُّ لها، ومُنصَّفٌ بصفاتها؛ سواء أكان من بيت سيادة أم لم
يكن.

وبذلك بين لنا الشعر أن الإنسان العربي كان يهيمه، قبل كل شيء، أن يكون
سيد القبيلة جديراً بحمل أعباء السيادة، موضحاً أنه إذا تحقق له ذلك رفعه إلى
المكانة العليا في نفسه، فدافع عنه، وخضع له، ووهبه أفضل ما فاز به من
الغنائم، وجعله المثال الأعلى الذي يحتذى في الحياة.

٣ - الدفاع عن القبيلة:

إن من أهم مظاهر النزعة العصبية، كما صورها لنا الشعر، أن يقف الفردُ
نفسه مدافعاً عن القبيلة، ولا ريب أن ظروف العيش قد هيأته لذلك، إذ جعلته حياة
الصحراء فارساً يُلَمِّمُ بفنون الإغارة والقتال، فهو غالباً ما يتوقع غزواً من عدو، أو
غارة خاطفة من موتور، أو صيحة حرب في القبيلة استعداداً لهجوم على حيٍّ من
أحياء القبائل الأخرى.

بيد أن بعض الشعراء ألمح إلى احتمال تخاذل أفراد من القبيلة في الدفاع عنها، وتناقلهم عن نصرتها، مما يدعو إلى غضبها عليهم وسخطها منهم. ولا شك لدينا في أن حدوث ذلك قليل، وفي حالات تكاد تكون نادرة، كمثل الذي جرى في حرب "البسوس" بين بكر وتغلب، فإنَّ بعض أشراف بكر لم يشتركوا في المعارك الأولى، ولعلمهم رجوا أن تتصالح القبيلتان، وتعودا عن القتال إلى ما كان بينهما من ودٍّ ووثام. ومن هؤلاء الحارث بن عباد الذي اعتزل الحرب مع أرهاط بني لُجيم، فانبرى سعد بن مالك، جد طرفة الشاعر، يحضّه، ويغمز من جانبه، لوقوفه موقف الخذلان لقومه^(٢٩):

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ التِّي وَضَاعَتْ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَاوَا
وَالْحَرْبُ لَا يَبْقَى لَصَا حَبَهَا النَّخِيلُ وَالْمِرَاخُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّيَّارُ فِي النَّوْ جَدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ

فالحبان الرعدي هو الذي يتخلى عن قبيلته في حربها، أما الفارس الشجاع فيهرع لنجدتها مخلفاً وراءه حياة الراحة واللهم. ولكن حتى في حالة الحارث بن عباد فإنَّ النزعة العصبية عادت تدفعه إلى مشاركة القبيلة في القتال والدفاع عنها كبقية الأفراد الآخرين، وخاصة أن ابنه بُجيرا كان قد قتل، وهو يسعى في الصلح لدى بني تغلب، وقد سجل موقفه الجديد في شعره حين قال^(٣٠).

قَرِّبَا مَرَبَطَ النَّعَامَةِ مَنِي لَقَحَتْ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنِ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ - - وَإِنِّي بَحْرَهَا الْيَوْمَ صَالِ
لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى فِتْيَالاً وَلَا رَهْطُ - - كُنَيْبٍ تَرَاجَرُوا عَنِ ضَلَالِ

فالدفاع عن القبيلة وحماها من واجبات الفرد الأولى، بل هو مفخرته الكبرى التي يعتدّ بها، وما الدفاع عن القبيلة إلا دفاع عن شخصه وشرفه وعرضه. وقد صور المثلّمس الضبّعي ذلك أبرع تصوير، في رده على شخص زعم أن الشاعر سيتخلى عن قبيلته ويفارقها لخلاف شجر بينه وبينها^(٣١):

أَمْ تَقَلًّا مِنْ آلِ بُهْتَةَ خِلْتَنِّي أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَيْنَمًا
أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَعِرْضِي عِرْضُهُمْ كَذِي الْأَنْفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يُكْشَمًا

لقد بلغ الشاعر ذروة التعبير عن محاماته عن القبيلة، حين جعلها في منزلة الأنف، وجعل الدفاع عنها كدفاع الإنسان عن أنفه، إذا خاض حرباً أو شهد قتالاً، وإذا علمنا أن الأنف رمز الشرف والعزة والكبرياء لدى العربي أدركنا مدى ما يبذله لصونه والحفاظ عليه.

ويتبع الدفاع عن القبيلة الدفاع عن أرضها وحماها، ذلك أن الاعتداء عليهما اعتداء على القبيلة نفسها، والذود عنهما ذود عن شرفها ومكانتها بين القبائل الأخرى. وهذا ما رآه عمرو بن يربوع الغنوي وعبر عنه في شعره، مفتخراً بأنه زاد مع قومه عن نجد بفرسان أشداء، وخيل قوية، وسلاح شائك^(٣٢).

وفضلاً عن الدفاع عن القبيلة وحماها فإن من شأن الشاعر ذي النزعة العصبية أن يفتخر بقوتها وشجاعة فرسانها، الذين في مقدورهم خوض المعامع والحروب، وشن الغارات، وقتل الأبطال أو أسرهم، وهزيمة الأعداء والخصوم.

وهو في هذا يعلي من القبيلة وسطوتها، ويباهي بتصوير فتكها وسلبها ونهبها، واختراق حمى أعدائها، على نحو ما صوره لنا عمرو بن قميئة من مشهد لغارة شنتها قبيلته ثعلبة بن عكابة، على أعدائها، حين قال^(٣٣):

وَمَلْمُومَةٍ لَا يَخْرِقُ الطَّرْفُ عَرَضَهَا لَهَا كَوَكَبٌ فَخَمٌّ شَدِيدٌ وَضُوحُهَا
تَسِيرُ وَتُرْجِي السَّمَّ تَحْتَ نَحْرِهَا كَرِيَةً إِلَى مَنْ فَاجَأَتْهُ صَبُوحُهَا

على مُفَذَّجَاتٍ وهنَّ عوابِسُ ضَبَائِرُ مَوْتٍ لَا يُرَاحُ مُرِيحُهَا
نَبَذْنَا إِلَيْهِمْ دَعْوَةً، يَا آلَ مَالِكٍ، لَهَا إِرْبَةٌ إِنْ لَمْ تَجِدْ مَنْ يُرِيحُهَا
فَسُرْنَا عَلَيْهِمْ سَورَةَ ثَعْلَبِيَّةً وَأَسْيَافُنَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ نُضُوحُهَا
وَأَرْمَاخُنَا يَنْهَزُنُهُمْ تَهَزَّ جَمَّةً يَعُودُ عَلَيْهِمْ وَرَدُنَا فَنَمِيحُهَا
فَمَا أَتَلَفْتُ أَيْدِيَهُمْ مِنْ نَفُوسِنَا وَإِنْ كَرَّمْتِ فَإِنَّا لَا نَنُوحُهَا
فَقَانَا: هِيَ النَّهْبَى وَحَلَّ حَرَامُهَا وَكَانَتْ حِمَى مَا قَبَلْنَا فَنُبِيحُهَا

لقد أبان الشاعر عن أن أقوى مظاهر العصبية تبرز في أشد الظروف وأقساها، وهل يكون ذلك إلا عند القتال ومواجهة الفرد للموت في ساحة المعركة؟ وقد جُلِّيت تلك العصبية أكثر جلاء في هذه الصيحات باسم القبيلة، وكان الفارس كان يحاول أن يحتمي بعصبيته من طعنات الرماح وضربات السيوف، أو كأنه كان يريد أن يؤكد لنفسه أنه ليس وحيداً في المعركة، وإنما هو من الجماعة التي ينادي باسمها.

لقد انتشى الشاعر العربي زهواً بقوة قبيلته وعزتها ومنعتها، فكان يعلن انتصاراتها على القبائل المعادية بأشعار تلهب حماسة، وسرعان ما تتناقلها الركبان، ويغدو صداها مدويا في أرجاء الجزيرة العربية كلها، فترهب العدو والخصم، وتفرح الصديق والحليف. وعلى شاكلة تلك الأشعار قول عامر بن الطفيل^(٣٤):

صَبَحْنَا الْحَيَّ مِنْ عَبَسٍ صَبُوحاً بكَأْسٍ فِي جَوَانِبِهَا التَّمِيلُ
وَأَبْقَيْنَا لِمُرَّةٍ يَوْمَ نَحْسٍ وَإِخْوَتِهِمْ فَقَدْ ذَهَبَ الْغَلِيلُ
فَدَلَّ الْأَبْلَحُ الْمُخْتَالَ إِنَّا نَخِيْسُهُ وَعَزَّ بِنَا الدَّلِيلُ

وليس أبعث لفخر الفرد من انتصار قبيلته، وعودتها إلى أحيائها محملة بالغنائم تجرّ وراءها الأسرى، وخاصة سبايا النساء؛ إذ إن سبيهن مظهر لمدى قوة القبيلة وسطوها، ولمدى ضعف العدو وتخاذله، لأن القبيلة لا تتخلى عن نسائها إلا بعد أن تهزم هزيمة منكرة، ثم إن بقاء السبايا بأيدي القبيلة المنتصرة يذكرها دائماً بفوزها، ويُبقي لظى محرقةً في قلوب أعدائها، وعاراً مشيناً لاصقاً بهم أمام القبائل الأخرى. ولهذا وجدنا بشر بن أبي خازم الأسدي يفخر بانتصار قومه على بني عامر وسبي نسائهم^(٣٥):

لحوناَهُمْ لَحَوَ الْعُصِيَّ فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانَ حَرِيْبُهَا
تَبَيَّتْ النِّسَاءُ الْمُرْضِعَاتُ بِرَهْوَةٍ تَقَرَّراً مِنْ هَوْلِ الْجَنَانِ قَلْبُهَا
بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ مِنْ الشَّلِّ وَالْإِيْجَافِ تَدْمَى عَجُوبُهَا
عَضَارِيْطُنَا مُسْتَحْقَبُو الْبَيْضِ كَالدَّمَى مُضَرَّجَةً بِالزَّرْعِرَانِ جِيُوْبُهَا

فهم قد أغاروا على بني عامر فهزموهم شر هزيمة، ثم سطوا على أموالهم ومتاعهم فانتهبوها، أما نساؤهم فقد سُبِيت مع رُضَعِها، وُجُمِعَتْ فِي مَنْخَفِضٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَلْبُهَا وَاجِفَةٌ خَائِفَةٌ، تَكَادُ تُقَطِّعُ مِنْ فِرْعَها وَجِرْعَها، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَى مَتُونِ الْخَيْلِ مَرْدِفَاتٍ خَلْفَ الْعَبِيدِ، وَأَخَذَتْ الْخَيْلَ تَسْرِعُ بِهِنَ، وَهِنَّ يَعْوَلْنَ وَيَصْرُخْنَ، بَعْدَ أَنْ كُنَّ حِرَائِرٌ مَمْتَنَعَاتٌ فِي بِيُوْتِهِنَّ. لَقَدْ أَدْلَوْا بَنِي عَامِرٍ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً حِينَ هَزَمُوهُمْ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، وَمَرَّةً أُخْرَى حِينَ سَبَوْا نِسَاءَهُمْ مَعَ أَطْفَالِهِنَّ، وَتَرَكَوا لِلْعَبِيدِ وَالْأَجْرَاءِ أَمْرَهُنَّ كِي يَحْمَلُوهُنَّ مَعَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ وَالْأَمْتَعَةِ.

وشبيهه بذلك أيضاً ما يصوره لنا عوف بن عطية التيمي لمشهد نسوة قد أُغِيرَ عَلَيْهِنَّ فَهِنَّ يَتْرَاكُضْنَ فِرْعَاتٍ جِرْعَاتٍ قَدْ حُسِرَتْ رُؤُوسِهِنَّ؛ وَسَقَطَتْ الْخُمُرُ عَنْ وُجُوْهِهِنَّ، وَتَهَلَّهَتْ ثِيَابِهِنَّ وَذَلِكَ كُلُّهُ خَشْيَةُ السَّبْيِ وَالْعَارِ اللَّذِينَ سَيَلْحِقَانِ بِهِنَّ^(٣٦).

إن اعتداد العربي بقوة قبيلته، واعتزازه بمقدرتها، وتعصبه الشديد نحوها، جعلته لا يرى قوة فوق قوتها، ولا مقدرة تفوق مقدرتها، وبيّن لنا الشعر أن رؤيته هذه لا تقتصر على القبائل التي حوله فقط، وإنما تتعداها لتشمل الملوك أيضاً، فمهما كانت عظمة الملك وهيئته وسيطرته فإنها لا تتال من مكانة القبيلة في نفسه؛ إذ هي عنده أعظم منزلة وأرقى شأنًا، لأنها تمنع أي ملك كان من أن يتناول عليها، أو يحاول إخضاعها.

وذلك ما رآه عامر بن جُوَيْن الطائي في قبيلته، حين شرع المنذر بن النعمان الأكبر ملك الحيرة، بتهديده وتهديد قومه، فرد عليه عامر قائلاً^(٣٧):

تَعَلَّمْ، أْبَيْتَ اللَّعْنَ، أَنْ قَنَانْتَنَا تَزِيدُ عَلَى غَمَزِ النَّقَافِ نَصَعْبَا
أَتَوَعِدُنَا بِالْحَرْبِ، أُمُّكَ هَائِلٌ، رَوَيْدَكَ بَرْقًا، لَا أَبَا لَكَ، خُلبَا
إِذَا خَطَرْتُ دُونِي جَدِيلُهُ بِالْقَنَا وَحَامَتُ رِجَالَ الْغَوْثِ دُونِي تَحَدُّبَا
أَبَيْتُ الَّتِي تَهْوَى وَأَعْطَيْتُكَ الَّتِي تَسُوقُ إِلَيْكَ الْمَوْتَ أَخْرَجَ أَكْهَبَا

إن قوة طيئ لتضاهي قوة النعمان وتفوقها، لهذا فإن وعيده لهم ما هو إلا كبرق لامع خادع لا غيث وراءه، وخاصة إذا اجتمع حيّاها، جديلة والغوث، وامتطى أبطالها سهوات الخيول وأشهروا السيوف والرماح، وارتصت صفوفهم كبنيان مرصوص، فعندئذ لا يجد الملك لديهم إلا أسلحة تجلب الموت الأسود له. لقد رأى الشاعر في قبيلته درعاً حصيناً يمنع أشد الملوك من اختراق حماه أو زعزعة أركانه.

وقد يحس الشاعر أن ملكاً ينوي بقبيلته شراً، وأنه يتحين سانحة للغدر بها والقضاء عليها، عند ذلك ينبري للدفاع عنها مظهراً ما تتصف به من عزة قعساء وشرف تليد ونسب عريق، وما تتميز به من قوة وشدة وبأس في المعارك والحروب، لعله بذلك يرهب الملك وينذره عاقبة غدره وخيانتته. وهذا ما نراه عند

الشاعر يزيد بن الخدّاق الأَسديّ، حين شعر أن النعمان بن المنذر يضمّر العداء لقبيلته، وأنه ينوي الغدر بها والإغارة عليها، فأنشأ يخاطبه^(٣٨):

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِيعٌ يخفي ضميرك غير ما يُبدي
فإذا بدا لك نَحْتٌ أَنْتَتَا فعليكها إن كُنْتَ ذا حَرْدِ
يَأبَى لَنَا أَنْ نَا دُوُو أَنْفِ وأصولنا من مَحْتِدِ المجدِ
إِنْ تَغْرُ بِالْحَرْقَاءِ أُسْرَتْنَا تَلَقَ الكتائبِ دوننا تَرْدِي
أَحْسِبُنَّا لِحْمَا عَلَى وَضَمِّ أم خَلَّتْنَا فِي البأسِ لا نُجْدِي
وَمَكَّرْتَ مَعْتَلِيًّا مَخَنَّتْنَا والمَكْرُ منك علامة العَمْدِ
وهزرت سيفك كي تحاربتنا فانظر بسيفك من به تُرْدِي

ولا يقف الأمر عند تهديد الشاعر للملوك وإنما يتعداه إلى التطاول عليهم، أحياناً، والنيل منهم؛ إمّا بإذلالهم كالذي نُسب إلى هشام بن خَلْف الكِنانيّ من فعلة شنعاء، تهدف إلى إهانة النعمان بن المنذر في حجه إلى مكة^(٣٩). وإمّا بالتعدّي عليهم وضربهم، كما رُعم من ضرب مَعْبَد بن عَصْم التغلبيّ للملك شُرْحَيْبيل الكِندي بقوسه وشجّه بها، لأنه نال من قبيلته^(٤٠).

وإما بقتلهم كما هو مشهور عن قتل عمرو بن كلثوم للملك عمرو بن هند. وقد أشار إلى تلك الحادثة جابر بن حُنَيّ التغلبيّ في قوله^(٤١):

ألا تستحي منا ملوكٌ وتَنَقِّي محارمنا لا يَبُوؤُ الدَمُّ بالدَمِّ
نعاطي الملوكَ السَلَمَ ما قصدوا بنا وليس علينا قتْلهم بِمُحَرِّمِ
وكائِنُ أَرْزْنَا الموتَ من ذي تَحِيّة إذا ما أزدَرانا أو أَسَفَّ لمَأْتِمِ

وهكذا صور الشعر لنا موقف الإنسان العربيّ من قبيلته تصويراً أبان فيه عن مدى حبه لها ومشاعره تجاهها، وقد جُلّي ذلك في دفاعه عنها ومناجزته لأعدائها،

وفي نظرتة إليها على أنها قوة ضاربة، لا يستطيع الملوك الأقوياء أن ينالوا منها. ويبدو أن هذه الرؤية هي التي ثبتت الروح الجماعية والعصبية القبلية في كيانه، فجعلته أكثر التحاماً بالقبيلة وأشد نزوعاً إليها.

٤ - الحنين إلى موطن القبيلة:

لا شك في أن معظم القبائل العربية، التي توزعت في أرجاء الجزيرة العربية، كانت في حركة مستمرة وسعي دائم وراء الماء والمرعى. بيد أن تنقل القبائل وارتحالها لا يعنيان أنها كانت تتأى بعيداً عن أرضها، فلا يُعرف لها موطن، ولا يُحد لها مكان، ذلك أن أغلب تلك القبائل في العصر الجاهلي كان لها أماكن معروفة ومواقع تختص بها من دون غيرها. وحتى إذا دفعتها السنة والحاجة إلى أن تنتجع بلاداً أخرى حيناً من الزمن فإنها لا تلبث أن تعود إلى أراضيها ومنازلها. وقد حفل الشعر، في مواضع لا تحصى منه، بذكر أماكن القبائل، وكثيراً ما يكتفي بذكر اسم الموضع للدلالة على القبيلة التي تقيم فيه، وكان الأخنس بن شهاب التغلبي من الشعراء الذين قرنوا عدداً من القبائل بأماكنها^(٤٢).

لِكَلِّ أَنْاسٍ مِنْ مَعَدٍ عِمَارَةً عَرَوْضٌ إِلَيْهَا يَلْجِئُونَ وَجَانِبُ
لُكَيْزٍ لَهَا الْبَحْرَانِ وَالسَّيْفُ كُلُّهُ وَإِنَّه يَأْتِيهَا بِأَسْ مِنْ الْهَنْدِ كَارِبُ
وَبُكْرٌ لَهَا ظَهْرُ الْعِرَاقِ وَإِنْ تَشَأْ يَحِلُّ دُونَهَا مِنَ الْيَمَامَةِ حَاجِبُ
وَصَارَتْ تَمِيمٌ بَيْنَ قَفٍّ وَرَمْلَةٍ لَهَا مِنْ حَبَالٍ مَنْتَأَى وَمَذَاهِبُ
وَكَلْبٌ لَهَا خَبْتٌ فَرَمْلَةٌ عَالِجٍ إِلَى الْحَرَّةِ الرَّجْلَاءِ حَيْثُ تُحَارِبُ
وَبَهْرَاءٌ حَيْثُ قَدْ عَلِمْنَا مَكَانَهُمْ لَهُمْ شَرَكٌ حَوْلَ الرُّصَافَةِ لِأَجِبُ
وَعَارَتْ إِيَادٌ فِي السَّوَادِ وَدُونَهَا بَرَازِيْقُ عُجْمٍ تَبْتَغِي مِنْ تُضَارِبُ

وكما هو واضح في الأبيات فإن الشاعر قد خص القبائل بأمكنة رحبية، ولم يفيدها بمواضع محددة، مما يدل على أنها، مهما تنقلت وارتحلت، تعود في نهاية

المطاف إلى مواطنها. ذلك أن منازل القبيلة واضحة معروفة لا تتبدل إلا لدواعي قاهرة وأسباب قوية، كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها، وأن يصيبها القحط سنين متتابعة، فعندئذ تضطر إلى ترك ديارها للبحث عن ديار جديدة. وهذا ما حدث لإياد إذ أزاحها بنو القيس عن مواطنها في البحرين، ثم شنت الفرس شملها في العراق^(٤٣). وقد ألمح الأخنس في البيت الأخير إلى ما أصاب إياداً من تشتتت على أيدي الفرس.

ونحن بذلك إنما حاول أن نعطي صورة عامة عن القبائل وأمكنتها لنمهد الحديث عن حنين الشعراء إلى مواطن قبائلهم التي رحلوا عنها راضين أو مضطرين لذلك الرحيل.

فضلاً عن القبائل السابقة ومواطنها، التي وردت في شعر الأخنس، فإننا نجد، من القبائل العدنانية، قريشاً قد نزلت بمكة وما جاورها، وثقيفاً بالطائف، وهذيلاً بقرب جبال السراة بالحجاز، وكنانة بأرض تهامة. كذلك كان بنو عامر بن صعصعة يستقرون غالباً، غربي نجد، وعبس وذبيان وسائر غطفان كانوا ينزلون بنجد شرقي يثرب. كما نزلت بنجد أيضاً ضبة وتميم، وانحدر قسم منهما إلى اليمامة وهجر. وكانت معظم قبائل ربيعة تنتشر في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، بين عمان حتى أطراف العراق والجزيرة.

ونجد، من القبائل القحطانية، قبائل حمير باليمن وجنوبي الجزيرة العربية، ثم من القبائل التي هاجرت من الجنوب واستقرت في أنحاء مختلفة الأوس والخزرج بيثرب وما حولها، وطيء بين جبلي أجأ وسلمى، والمناذرة بالحيرة، والغساسنة ببلاد الشام. ولا يخفى أن شعر الأطلال زاخر بالإشارات إلى تلك الأمكنة، مفصلاً فيها تفصيلاً واسعاً.

ومما لا ريب فيه أن الشعر الجاهلي صور شدة تعلق الإنسان العربي بمواطن القبيلة ومرابعها، وبين فيه الشعراء أن القبيلة كلها تظل ملتصقة بأرضها التي

تعدّها حمىً لها، لا تستطيع القبائل الأخرى الاعتداء عليه، حتى إذا أصابها أمر اضطرها إلى مغادرة منازلها والبعد عن ديارها فإنها تبقى تحن وتصبو إلى تلك المعاهد، ويبقى الفرد فيها مشوقاً إلى الأرض القبيلة الأم، يشعر نحوها بحنين طاغ وشوق جارف.

وقد عبّر عن مثل ذلك الشعور ثعلبة بن غيلان الإياديّ أبدع تعبير، حين أثارته ذكرى مواطن قبيلته إياد في البحرين، وكانوا، كما مر بنا، قد فارقوها إلى سواد العراق، وابتغته الشوق والحنين إلى مراتع الطفولة فيها، وتتالت مشاهد الماضي على مخيلته بمختلف الصور المحببة، فاهتزت نفسه ألماً وحرقة لما آل إليه مع قبيلته من غربة دائمة، حافلة بضروب الذل والهوان^(٤٤):

تَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الْمُعَمَّسِ نَاقَتِي	وَمِنْ دُونِهَا ظَهَرُ الْجُرَيْبِ فَرَكَسُ
بِهَا قَطَعْتُ عِنَا الْوَدَمِ نَسَاؤُنَا	وَخَرَسَتْ الْأَبْنَاءُ فِيهَا الْخَوَارِسُ
إِذَا شِنْتُ غَنَائِي الْحَمَامُ بِأَيْكَةِ	وَلَيْسَ سِوَاءَ صَوْتِهَا وَالْعَرَانِسُ
فِيَا حَبَّذَا أَعْلَامُ بَيْشَةَ وَاللَّوَى	وَيَا حَبَّذَا أَحْشَافُهَا وَالْجَوَارِسُ
أَقَامَتْ بِهَا جَسْرُ بَنُ عَمْرٍو وَأَصْبَحْتُ	إِيَادُ بِهَا ذَلٌّ مِنْهَا الْمَعَاطِسُ

وقد يضطر الشاعر بفرده إلى مفارقة القبيلة وموطنها، وتتأى به الغربة بعيداً عن مراتعها ويطيح به الفراق إلى أرض لا يجد فيها قريباً أو حبيباً، عند ذلك تشتد به المواجه، وتتتابه الحسرات، وتتسعّر به الأشواق إلى رؤية المهد الأول، فتجيش النفس أسى وحسرة، وتتزع متلهفة نحو موطن القبيلة. وهذا ما أصاب زامل بن عُفَيْر الطائيّ الذي نأت به ديار الغربة حتى حطته عند الحارث الأكبر الغساني، فمدحه ونال عنده منزلة ومقاماً كريماً، لكن وطن القبيلة ظل يجذبه إليه، وظل يجد نفسه غريباً في قوم غرباء^(٤٥):

أَبْلَغِ الْحَارِثِ الْمُرْدَدَ فِي الْمَكِّ — رُمَاتِ وَالْمَجْدِ جَدًّا فَجَدًّا
أَنْنِي نَاطِرٌ إِلَيْكَ وَدُونِي — عَاتِقَاتٌ غَاوِرْنَ قَرِيباً وَبُعْدَا
أَزَلُّ نَازِلٌ بِمَثْوَى كَرِيمٍ — نَاعِمُ الْبَالِ فِي مَاحٍ وَمَعْدَى
غَيْرَ أَنَّ الْأَوْطَانَ يَجْتَذِبُ الْمَرْءَ — ءَ إِلَيْهَا الْهَوَى وَإِنْ عَاشَ كَدًّا
وَتَأْبِي بِالشَّامِ مُفِيدِي — حَسْرَاتٍ يَفُذُّنَ قَلْبِي قَدًّا
لَيْسَ يَسْتَعِذُّ الْغَرِيبُ مَقَامَا — فِي سِوَى أَرْضِهِ وَإِنْ نَالَ جَدًّا

أما المتلمس، فإنه حين حرم عليه عمرو بن هند العودة إلى بلاده في أرض العراق، نازعته نفسه شوقاً وتحناناً إلى موطن القبيلة، وملّت تجوَاب البلدان والآفاق على متن الناقة، فإذا هي تخلع مشاعرها على صاحبة حلها وترحالها، وتندمج معها في وحدة القلق والمعاناة، وإذا صوت النفس وصوت الناقة يغدون صوتاً واحداً يعبر عن ألم الغربة وقسوة البعد^(٤٦):

حَنَنْتُ قَلُوصِي بِهَا وَاللَّيْلُ مُطَّرِقٌ — بَعْدَ الْهُدُوِّ وَشَاقَتَهَا النَّوَاقِيسُ
أَنْنِي طَرِيتِ وَلَمْ تُلْحَيِ عَلَيَّ طَرْبٌ — وَدُونَ الْفِكَ أَمْرَاتٌ أَمَالِيسُ
حَنَنْتُ إِلَى نَخْلَةِ الْقُصُوصِ فَقَلْتُ لَهَا: — بَسَلْتُ عَلَيْكَ أَلَا تَلِكِ الدَّهَارِيسُ
أُمَّي شَامِيَّةً، إِذْ لَا عِرَاقَ لَنَا، — قَوْمًا نَوَدُّهُمْ إِذْ قَوْمُنَا شُوسُ
لَنْ تَسْلُكِي سُبُلَ الْبُؤْبَاةِ مُنْجِدَةً — مَا عَاشَ عَمْرُو وَمَا عُمِّرَتْ قَابُوسُ

وشبيه بهذا ما أصاب دَوْسَرَ بْنَ ذُهَيْلِ الْفُرَيْعِيِّ حين فارق موطنه نجداً، وامتدَّ زمن غربته، لكن نفسه ظلت أمينة لعهداها القديم كما ظلت ناقته تطرب كلما لقيت قلاصاً آتية من مراتعها الأولى^(٤٧).

ونرى في الشعر أن المرأة لم تكن أقل تعلقاً بموطن القبيلة من الرجل، فقد عانت رامة بنت حُصَيْنِ الأَسَدِيَّةِ معاناة شديدة حين شحطت بها النوى بعيداً عن ديار قومها، وألقتها في قرية من الحضر. لقد اشتدت بها نوازع الحنين إلى مراتع حبيها، ومراتع صباها، فطفحت نفسها بفيض من الشوق إليها، وهفت إلى النساء الجنوبية التي تهب عليها، وشامت ببصرها إلى لمعان بروقها، وتذكرت بأسى وحسرة خضرة مراتعها وتجاوب صفير طيورها في هدأة الليل وقارنته بصياح الديكة ونقيق الضفادع التي تسمعها في غربتها، فإذا البون شاسع والفرق كبير، وإذا قلبها ينبض بحب مواطن القبيلة ومناخها وحيوانها وكل ما يمت إليها^(٤٨):

أَلَامٌ عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ يَكُ ذَا هَوَى	بَنَجْدٍ يَهْجُهُ الشُّوقُ شَتَّى نَزَائِعُهُ
تَهْجُهُ الْجَنُوبُ حِينَ تَعْدُو بِنَشْرِهَا	يَمَانِيَةً وَالْبَرْقُ إِنْ لَاحَ لَامِعُهُ
وَمَنْ لَامَنِي فِي حَبِّ نَجْدٍ وَأَهْلُهُ	فَلَيْمٍ عَلَى مَثَلٍ وَأَوْعَبَ جَادِعُهُ
لَعَمْرُكَ لِلْعَمْرَانِ عَمْرًا مُقْلَدٍ	فَدُو نَجَبٍ عَلَانُهُ وَدَوَاعِيُهُ
وَحَوٌّ إِذَا حَوُّ سَقْتُهُ ذَهَابُهُ	وَأَمْرَعٍ مِنْهُ تَيْبُهُ وَرَبَائِعُهُ
وَصَوْتُ مَكَائِي تَجَاوَبُ مَوْهِنَا	مَنْ اللَّيْلِ، مَنْ يَأْرَقُ لَهُ فَهَوٌ سَامِعُهُ
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ فَرَارِيحِ قَرْيَةٍ	تَرَاقِي وَمَنْ حَيٌّ تَتَّقُ ضَفَادِعُهُ

وهكذا أوضح لنا الشعر عن أن تعلق الإنسان العربي بالقبيلة ارتبط بتعلقه بمواطنها وديارها، فأضحى حبه لها ممزوجاً بحبه لأرضها، ونزوعه نحوها مقروناً بنزوعه إلى منازلها، ومن ثمَّ أظهر الشعر أن دفاعه عن القبيلة يضاهي دفاعه عن موطنها، ذلك الموطن الذي يقترن في ذهنه بالقبيلة، ولا يمكنه بأية حال أن

يفصل بينها وبين ديارها، لأنهما يشكلان معاً حماه الذي يبذل نفسه وماله دفاعاً عنه.

٥- رثاء أفراد القبيلة:

إن الأشعار السابقة صورت الإنسان العربي وقد تغلغل في نفسه حب قبيلته حتى غدا هو والقبيلة كياناً واحداً، يسره فرحها، ويؤلمه حزنها. ولعل مرد ذلك يعود إلى شمول الروح الجماعية بين الأفراد وإحساسهم بالمصير المشترك، فضلاً عن شعورهم بارتباط وجودهم بوجود القبيلة وحياتهم بحياتها. وإذا كان الشعراء قد جَلُّوا ذلك في تصويرهم لتمسك الفرد بنسب القبيلة والخضوع لها ولسيدها، وللدفاع عنهما، ثم لحنينه الجارف إلى ديارها، فإن رثاءهم لقتلاها ولمن فقد من أبنائها كان مظهرًا أكثر تعبيراً عما تكته عواطف الفرد من ميل شديد تجاه قومه ونزوع قوي إليهم.

ولعل ما زاد في إظهار صورة رثاء أفراد القبيلة في الشعر أن الحياة التي عاشوها كانت غالباً عرضة لخطر الهلاك، وكان الواحد منهم يجزع جزعاً شديداً أن يسمع، بعد كل غارة يقوم بها قومه أو تقوم بها قبيلة أخرى عليهم، صوت النعي يدوي بأسماء رجال عشيرته الذين جُدُّوا على أرض المعركة، حينئذ تنتزى نفسه حزناً، ويفعم قلبه أسى، فيحرم على نفسه اللهو واللذائذ، ويعكف على ندبهم والنواح عليهم. ولا ريب في أن نفسه تمتلئ حقدًا وبغضاً وضغينة على الأعداء، تنبى فيما يؤلي على نفسه أحياناً من الأيمان المغلظة من أنه سينتقم لقومه أشد الانتقام.

ولنا في شعر الرِّبيع بن زياد العبسي أفضل شاهد على ذلك، فقد أتاه نعي مالك بن زهير، وهو أحد أشرف بني عبس، وعلم أن بني فزارة غدرت به، وقتلته، فثار به الغضب، وهاجت كوامن الثأر في نفسه، فألى على نفسه أن يعتزل النساء، وأن يعد ما لديه من قوة وعدة وعتاد حتى يثأر له من قاتليه^(٤٩):

إِنِّي أَرَقْتُ فَلَمْ أُعَمِّضْ حَارِ
مِنْ مِثْلِهِ تُمَسِي النِّسَاءَ حَوَاسِرًا
أَفْبَعِدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زَهِيرِ
مَا إِنْ أَرَى فِي قَتْلِهِ لَذَوِي الْقَوَى
وَمُجَنَّبَاتٍ مَا يَدْفُنَنَّ عَدُوفًا
وَمَسَاعِرًا صَدَأَ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ
مِنْ سَيِّئِ النَّبَأِ الْجَلِيلِ السَّارِي
وَتَقُومُ مُعُولَةً مَعَ الْأَسْحَارِ
تَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ
إِلَّا الْمَطْيِيَّ تَشَدُّ بِالْأَكْوَارِ
يَقْدِفَنَّ بِالْمُهْرَاتِ وَالْأُمَهَارِ
فَكَأَنَّمَا تُطَلَّى الْوَجُوهُ بِقَارِ

وقريب من هذا ما عبّر عنه في شعره دريد بن الصّمّة الذي كبر عليه
مقتل أفراد قومه على يد بني الحارث بن كعب، فانبرى يرثيهم رثاء ينطوي على
تهديد ووعيد لبني الحارث بانتقام ما بعده انتقام^(٥٠). وكان عبدالله بن ثور العامري
قد أثاره ما رأى من عيون تذرف حزناً على من صرّع في المعركة من قبيلته، فدفعه
الحزن والغضب إلى التأهب والإعداد لجولة أخرى يثار لهم فيها^(٥١).

وأولئك الأفراد الذين صرّعوا، وفقدتهم القبيلة، ليسوا في نظر الشاعر إلا أناساً
في منتهى البطولة والسؤدد والشرف؛ فهم يجمعون الخلال الحميدة كلها، ويتصفون
بأنبل الصفات وأفضلها. أليسوا هم الذين قد ضحوا بأنفسهم فداء لقبيلتهم وإعلاء
لشأنها؟ أليسوا هم قد جادوا بدمائهم فيزوا أكرم الكرماء؟ وقد عكس لنا هذه الرؤية
شداد بن الأسود في رثائه لقتلى قومه يوم بدر^(٥٢).

تُحَيِّي بِالسَّلَامَةِ أُمَّ بَكْرٍ
فَمَاذَا بِالْقَلِيْبِ قَلِيْبِ بَدْرِ
وَمَاذَا بِالْقَلِيْبِ قَلِيْبِ بَدْرِ
وَكَمْ لَكَ بِالطَّوِيِّ بَدْرِ
وَكَمْ لَكَ بِالطَّوِيِّ بَدْرِ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عَقِيْلٍ
وَهَلْ لِي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلَامٍ؟
مِنَ الْقَيْنَاتِ وَالشَّرْبِ الْكَرَامِ
مِنَ الشَّيْزِيِّ تَكَاكُلُ بِالسَّنَامِ
مِنَ الْحَوْمَاتِ وَالنَّعَمِ الْمَسَامِ
مِنَ الْغَايَاتِ وَالذُّسْعِ الْعِظَامِ
وَأَصْحَابِ النَّيِّةِ مِنْ نَعَامِ

إِذَا لَظَلَّتْ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِمْ كَأَمِّ السَّقْبِ جَائِلَةَ الْمَرَامِ

لقد تزاخمت الأشجان في نفس الشاعر، وتفاقم فيها الحزن، وخيم اليأس الأسود على قلبه، وأخذت التساؤلات تطرق عقله وفكره، كيف يعيش، وقد قتل سادة القبيلة وعظماؤها؟ وأية قيمة لوجوده، وقد تلاشى وجود أشراف قومه؟ لا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر جعل أفول حياة قومه في منزلة أفول حياته هو، ولم تعد الحياة لديه جديدة بالمسرة والمتعة واللهو، بعد أن أصابت المنايا أفراد العشيرة وطواهم الردى.

ولعل ما كان يلهب نائرة الشعراء، ويدفعهم إلى التعبير في أشعارهم عن مزيد من الحزن على أفراد القبيلة، ومزيد من الغضب لمقتلهم، هو الحياة القبلية وما كان شائعاً فيها من اجتماع الحي لبكاء القتلى وندبهم والنواح عليهم، ثم إعلان مظاهر الحزن والأسى أمام القبائل الأخرى. وهذا ما فعلته قريش عقب يوم بدر؛ إذ ورد أنها "ناحت على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكة إلا فيها نوحٌ، وجزَّ النساء شعرَ الرؤوس. وكان يُؤتى براحلة الرجل منهم، فُتوقف بين أظهرهم، فينوحون حولها"^(٥٣). ويبدو أن إطالة مدة الحزن كانت تهدف إلى تأجيج نيران الانتقام في صدور أبناء القبيلة لكي يثأروا لقتلاهم من الأعداء.

وتشير الأشعار، في هذا المجال، إلى أن النساء كنَّ يقمن بالرتاء أيضاً على أفراد القبيلة فضلاً عن ندبهن ونواحين، وذلك لما لهن من رقة شعور ولطف إحساس، ولما ينتابهن من ألم المصاب بفقد الأحباب والأزواج والأقرباء، الذين هم عمادهن في معاشهن، ودرعهن في حياة خطيرة تعرضهن للسبي والاختطاف.

وقد عبرت الخزنيق بنت بدر عن ذلك خير تعبير حين أتاها نعيُّ أفراد عشيرتها ينبئها بأن سهام المنايا قد أردتهم صرعى في معركة دارت رحاها بينهم وبين أعدائهم؛ فإذا هي لا ترى فيهم إلا فرساناً أقوياء، وأجواداً كرماء، وأشرافاً نبلاء، قد حازوا كل

مكرمة؛ فأيديهم سخية بالعتاء، وذيلهم طاهر من الأدران، وشجاعتهم مضرب
الأمثال، وعطفُ بعضهم على بعض لا يقف عند حد، حتى يمتنع على المرء أن
يميز غنيهم من فقيرهم وموسرهم من معسرهم^(٥٤):

لا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَفَةُ الْجُرُزِ
النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَرْزِ
قَوْمٌ إِذَا رَكَبُوا سَمِعَتْ لَهُمْ لَعَطًا مِنَ النَّأْيِيهِ وَالزَّجْرِ
وَالخَالِطُونَ نَحِيَّتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ وَذَوِي الْغَنَى مِنْهُمْ بِذِي الْفَقْرِ
هَذَا تَنَائِي مَا بَقِيَتْ لَهُمْ فَإِذَا هَلَكْتُ أَجَنَّبِي قَبْرِي

ونستدل من بعض الأشعار على أن الرثاء لم يكن مقتصرًا على أفراد القبيلة
الذين قتلوا في المعارك والحروب، وإنما قد يرثي الشاعر قبيلته إذا أُلِمَّتْ بها
المصائب، وأحدثت بها الأخطار فمزقتها كل ممزق، وأهلكت كثيرًا من أبنائها.
كالذي نجده لدى أبي دُوَادِ الإياديِّ من رثاء حار على قبيلة إياد، التي، كما أشرنا
من قبل، قد أُجْلِيَتْ عن ديارها بالبحرين إلى سواد العراق، ثم فني كثير من أفرادها
في قتال القبائل والأعاجم هناك، مما أحدث أعظم الأثر في نفس أبي دُوَادِ، عبر
عنه في قوله^(٥٥):

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مَنَ قَدْ رَزَنَتْهُ الْإِعْدَامُ
مَنْ رَجَالٍ مِنَ الْأَقَارِبِ قَادُوا مِنْ حُذَاقٍ هُمْ الرُّؤُوسُ الْعِظَامُ
فَهُمْ لِلْمَلَائِمِينَ أَنْوَاءُ وَعُورَامٌ إِذَا يُرَادُ الْعُورَامُ
وَسَمَاحٌ لَدَى السَّنِينِ إِذَا مَا قَحَطَ الْقَطْرُ وَاسْتَقَلَّ الرَّهَامُ
وَشَبَابٌ كَأَنَّهُمْ أُسْدٌ غِيَلٍ خَالِطَتْ قَرْطَ حَدِّهِمْ أَحْلَامُ
وَكَهْوَلٌ بَنَى لَهُمْ أَوْلَاؤُهُمْ مَأْتِرَاتٍ يَهَابُهَا الْأَقْوَامُ
سُلْطَ الدَّهْرِ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامُ

فعلى إثرهم تَسَاقَطُ نفسي حَسَرَاتٍ وذكُرهم لي سَقَامُ

وهكذا نجد أن رثاء الأفراد لدى الشعراء كان مظهرًا من مظاهر النزعة العصبية؛ إذ عبروا فيه عن مدى الرابطة التي تشد ما بين أفراد القبيلة من أواصر المحبة والتعاطف والتناصر، حتى إذا أصيب واحد منهم، وأودت به إصابته، تداعى له سائر الأفراد بالحزن والأسى من جهة، وبالغضب والتأهب للانتقام من جهة أخرى.

وخلاصة القول أن الشعر أبرز لنا العصبية القبلية لدى الإنسان العربي متجلية في أشكال عدة، من التزام قبلي، ومن ولاء للقوم وسيدهم، ومن دفاع عنهم، وحنين إلى ديارهم، ورثاء لأفرادهم. وهذا ما يجعلنا نعتقد، معتمدين في ذلك على ما قدمناه من أقوال الشعراء أنفسهم، أن النزعة العصبية كانت أهم المقومات التي استندت إليها الحياة القبلية في العصر الجاهلي، والتي كانت تتحكم في علاقة الفرد الاجتماعية بقبيلته، وكلما كانت تلك النزعة طاغية عليه اشتد التحامه بالقبيلة وأفرادها، وقوي ارتباطه بديارها وجماها.

الحواشي والمصادر والتعليقات

- (١) مقدمة ابن خلدون: ص ١١٦، ط دار الشعب، القاهرة.
- (٢) بحث في علم الجمال: ص ٢٤، لجان برتليمي، ترجمة أنور عبدالعزيز، ط القاهرة، ١٩٧٠.
- (٣) الأصمعيات: ص ١٠٧، للأصمعي، تحقيق شاکر وهارون، ط دار المعارف، مصر ١٩٦٧.
- (٤) تاريخ الطبري: ٢٢٣/١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، مصر ١٩٦٠.
- (٥) المفضليات: ص ٦٩٥-٦٩٦، للمفضل الضبي، شرح الأنباري، ط بيروت ١٩٢٠.
- (٦) ديوان سلامة بن جندل: ص ١٥٣-١٥٤، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط حلب ١٩٦٨.
- وذو بن الأسنة: محددتها، أو أنها أشربت سماً. والأوساق: الأجمال. والعندم: نبات يُصَبَغ به.
- (٧) ديوان الأعشى الكبير: ص ١٣١، تحقيق محمد محمد حسين، ط القاهرة ١٩٦٠.
- (٨) المؤلف والمختلف: ص ٤٢، للآمدي، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ط القاهرة ١٩٦١.
- (٩) شرح القصائد العشر: ص ٣٦٥-٣٦٦، تحقيق د. فخر الدين قباوة، شرح التبريزي، ط حلب ١٩٧٣.

- (١٠) المفضليات: ص ٦٢٦. والقسعاء: الثابتة. ونختطم العدى: نضرب
خطمهم، والخطم الأنف، ويطدون الأرض: يشدونها ويثبتونها.
- (١١) خزانة الأدب: ٩٠/٣، للبغدادي عبدالقادر، تحقيق عبدالسلام هارون،
ط القاهرة.
- (١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (١٣) الحيوان: ٤٧١/٣، للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط الباي
الخطبي، مصر ١٩٦٥.
- (١٤) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي: ص ٤٦-٤٨، تحقيق خليل إبراهيم
العطية، ط بغداد ١٩٧٠.
- والشزر: فتل الحبل مما يلي اليسار، وهو أشد لفتله. والمريرة: من "المِرَّة"
وهي إحكام الفتل ثم أريد بها القوة. والقحم: الشيخ الكبير. والضَّرْع: العَمْرُ
الضعيف.
- (١٥) ديوان الاعشى الكبير: ص ٣١.
- (١٦) عيون الأخبار: ٢٢٦/١، لابن قتيبة، ط دار الكتب، مصر ١٩٢٥.
- (١٧) شرح القصائد العشر: ص ١٧٤-١٧٨.
- (١٨) الحيوان: ٣٣٠/١، والشرح عن الجاحظ.
- (١٩) مقدمة ابن خلدون: ص ١١٦.
- (٢٠) البيان والتبيين: ٢٣٩/١، للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط القاهرة
١٩٦٨.
- والصتم: الصحيح القوي.

- (٢١) الحيوان: ٣٠/٥. وخَلاها: من "الخَلَى" وهو الرطب من النبات؛ أي جعلها كالسوائم ترداد المرعى بدون قائد.
- (٢٢) تاج العروس: مادة (مأ) للزيدي، ط مكتبة الحياة، بيروت.
- (٢٣) السيرة النبوية: ١/١٢٥، لابن هشام عبدالملك، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ط مصر ١٩٥٥.
- (٢٤) ديوان لقيط بن يعمر: ص ٤٧.
- (٢٥) ديوان الأعشى الكبير: ص ٤٩.
- (٢٦) أمالي المرتضى: ١/٥٣١، للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط بيروت ١٩٦٧.
- (٢٧) الحيوان: ٩٦/٢.
- (٢٨) المعمرّون والوصايا: ص ١٢٢، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق عبدالمنعم عامر، ط مصر ١٩٦١.
- (٢٩) الأغاني: ٥/٤٦، لأبي الفرج الأصفهاني، ط دار الكتب المصرية. وفرس وقاح: أي ذو حافر صلب، أو هو صلب قوي.
- (٣٠) الأصمعيّات: ص ٧١. والنَّعامَة: فرس الحارث بن عباد. ولقحت: حملت. وعن حيال: بعد حيال، وحالت الناقة: لم تحمل، وهذا مثل ضربه لشدة الحرب.
- (٣١) ديوان الملتَمَّس الضُّبُعيّ: ص ١٩-٢١، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٧٠.

وَبُهْتَةٌ: بطن من ضُبَيْعَةٍ، وهم عشيرة المثلّمس. وأينما: أراد في أي مكان كنت فإنني أنتمي إلى قومي.

(٣٢) الحماسة البصرية: ٩٧/١، لصدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، ط حيدر آباد الدكن ١٩٦٤.

(٣٣) ديوان عمرو بن قميئة: ص ٣٢-٣٧، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥.

وملمومة: مجتمعة، وأراد كتيبة مجتمعة، والكواكب: هنا، معظم الشيء. والمقذحات: المنهيات للقتال، والضمير يعود إلى الخيل. والضبائر: الجماعات ونهزيمة: أي انتزاع ما فيها. والجمة: كثيرة الماء، وأراد بئراً جمة.

(٣٤) ديوان عامر بن الطفيل: ص ٩٤، شرح الأنباري، ط بيروت ١٩٦٣. والتميل: السم.

(٣٥) ديوان بشر بن خازم: ص ١٨، تحقيق عزة حسن، ط دمشق ١٩٧٢. والآلة: الحالة. والحريب: المسلوب المال والمتاع. والشل: السوق والطرده. والإيجاف: السير الشديد. والعُجوب: جَمَع العَجَب، وهو مؤخر كل شيء، وأراد بها الأعجاز. والعضاريط: جمع العُضْرُوط، وهو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه.

(٣٦) المفضليات: ص ٦٣٧.

(٣٧) ذيل الأمالي والنوادر: ص ١٧٨، لأبي علي القالي، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦.

وأخرج: يقال: ظليم أخرج، أي فيه سواد وبياض. وأكهب: يقال: بعير أكهب، أي في لونه غبرة مشربة سواداً.

(٣٨) المفضليات: ص ٥٩٤-٥٩٦. والأثلة: الشجرة، وهذا مثل.

والحرد: القصد أو الغضب. والخرقاء: الجهل. والمخنة: الأنف.

(٣٩) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ٥٥٢/١، للبكري عبدالله، تحقيق عبدالعزيز الميمني، ط القاهرة ١٩٣٦.

(٤٠) المحبر: ص ٢٠٥، لابن حبيب، تحقيق إيلزة ليختن شتيتير، ط حيدر آباد الدكن ١٩٤٢.

(٤١) المفضليات: ص ٤٢٦. وبيوء: من قولهم باء فلان بفلان إذا كان كفوًا أن يُقتل به، وقد ترك إعلال الفعل ضرورة. وذو تحية: أراد الملك. وأسف: دنا.

(٤٣) المفضليات: ص ٤١٤-٤١٧. والسيف: ضفة البحر. وقف ورملة: موضعان.

وحبال: أراد بها حبال الرمال، وهي معازمها. وخبث والحرة: موضعان. والرجلاء: الغليظة. والشرك: موضع تشعب الطرق. والبرازيق: جمع البرزق، وهو الموكب، وأراد به هنا الكتيبة.

(٤٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٢٢/٤، لجواد علي، ط بغداد ١٩٧٦.

(٤٤) معجم ما استعجم: ٧٦/١، للبكري عبدالله، تحقيق مصطفى السقا، ط القاهرة ١٩٤٥.

والمغمس والحريب وراكس أسماء مواضع. والوذيم: ما تُعلق به التمام من خيط أو ما شابهه. والخوارس: النسوة اللواتي يطعمن الناس في ولادة المرأة، واسم الطعام الخرس. والعرانس: طيور تشبه الحمام. بيثشة واللوى: موضعان.

والأخشاف: جمع الخشف، وهو ولد الظبي. والجوارس: الطيور المصوّتة.
والمعاطس: الأنوف.

(٤٥) معجم البلدان: مادة (شأم) لياقوت الحموي، ط بيروت ١٩٥٥.

وعاتقات: جمع عاتقة، وهي الفرس الكريمة. وعاورن: نزلن الغور.

وآزل: من "أزل الفرس" إذ قصّر حبله ثم سيّب؛ فكأنه لمّا غادر قومه صار
في منزلة الفرس المسيّب. وتأبّي: من "تأبّي" والياء للمتكلم.

(٤٦) ديوان المتلمّس الضبي: ص ٨٢-٩٣. وأمّرات: جمع مَرّت، وهي
الأرض التي لا نبت فيها.

وأماليس: جمع إمليس، وهي الأرض المستوية أو التي لا نبات فيها. والسبل:
الحرام. والدهاريس: الواهي، وأمّي شامية: أي اقصي ناحية شامية. وشوس: من
"الشّوس" وهو النظر بمؤخر العين تكبيراً أو تغيظاً. والبوية: موضع بنجد.

(٤٧) الأصمعيّات: ص ١٥٠.

(٤٨) فرحة الأديب: ص ١٣٩، للفندجاني، تحقيق د. محمد علي سلطاني، ط
دمشق ١٩٨١.

وانظر معجم البلدان: مادة (غمران). وأوعب: استأصل. والجادع: قاطع
الأنف خاصة. والغمران، وذو نجب: مواضع في بلاد بني أسد.

والغلان: الوديان الغامضة في الأرض. والدوافع: الأراضي السهلة التي تدفع
فيها الأودية. والخو والتين والريائع: مواضع في بلاد بني أسد.

ومكاكي: جمع مكاء، وهو طائر أبيض كثير الصغير.

(٤٩) شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٩٩١-٩٩٤ للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين
وعبدالسلام هارون، ط القاهرة ١٩٥١.

وعواقب الأطهار: أي مراجعة البعولة إلى مضاجعة النساء بعقب أطهارهن.
والأكوار: جمع الكور وهو الرحل بأداته. والمجنّبات: هي الخيل التي كانوا
يجنبونها فلا يركبونها إلا في الإغارة. والعذوف: أدنى الأكل. والمساعر: هو
الذي يُسعر الحرب ويوقدها.

(٥٠) الأغاني: ٣٤/١٠.

(٥١) قصائد جاهلية نادرة: ص ١٥٨، مختارات من (منتهى الطلب) لابن
ميمون، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط بيروت ١٩٨٢.

(٥٢) السيرة النبوية: ٢/ ٢٩. والقليب: البئر. والشرب: جماعة القوم الذين
يشربون. والشيزى: الجفان تصنع من الخشب. والسنام: لحم ظهر البعير.
الحومات: جمع الحومة، وهي القطعة من الإبل. والمسام: المرسل في المرعى
من دون راع. والثنية: الفرجة بين جبلين. ونعام: موضع والسقب: ولد الناقة.

(٥٣) المغازي: ١/ ١٢٢، للواقدي، تحقيق بارسدن جونس، ط جامعة أكسفورد
١٩٦٦.

(٥٤) ديوان الخرنق بنت بدر: ص ٢٩-٣٢، تحقيق حسين نصار، ط القاهرة
١٩٦٩. والتأبيه: الصوت.

(٥٥) الأصمعيات: ص ١٨٧. وفادوا: ماتوا. وحذاق: حي من إياد. واستقل:
رحل: والرّهام: جمع الرّهمة: وهي المطر الضعيف. والهام: جمع الهامة، وهي
طائر صغير، تزعم العرب أنه يخرج من الميت.

